« مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ »
(حديث شريف)

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

نحمدك يامن تنزه فى كماله عن الأشباه والنظائر ، وتقدس فى جلاله عن أن تدركه الأبصار ، أو تحيط به الأفكار ، أوتعزب عنه الضمائر ، وتأزر بالكبرياء وتردى بالعظمة ، فمن نازعه واحدا منهما فهو المقصوم البائر ونشهد أن لاإله إلا أنت وحدك لاشريك لك شهادة يلوح عليها للاخلاص أمارات . وتبهج قائلها بأعظم البشائر ، يوم تبلى السرائر ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبدك ورسولك أفضل من نسلته من ظهور الأمائل وبطون الحرائر ، وأرسلته لخير أمة أخرجت للناس ؛ فهديت به كل حائر ، ومحيت به مظالم الجاهلية ، وأحييت به معالم الإسلام والشعائر . وواعدته المقام المحمود وشفعته فى الصغائر والكبائر ، وكم بين شرائع دينك القويم ، حتى ورثها من بعده أولى البصائر : صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه ذوى الفضل السائر صلاة وسلاما نعدهما يوم القيامة من أعظم الذخائر ، دائمين ماسار الفلك الجارى ودار الفلك الدائر ،

أما بعد : فعلم الفقه بحوره زاخرة ، ورياضه ناضرة ، ونجومه زاهرة ، وأصوله ثابتة مقررة ، وفروعة ثابتة محررة . لايفنى بكثرة الإنفاق كنزه . ولا يبلى على طول الزمان عزه . أهله قوام الدين وقوامه ، وبهم ائتلافه وانتظامه : هم ورثة الأنبياء ، وبهم يستضاء فى الدهماء ، ويستغاث فى الشدة والرخاء ، ويهتدى كنجوم السماء وإليهم المفزع فى الآخرة والدنيا ، والمرجع فى التدريس والفتيا : ولهم المقام المرتفع على الزهرة العليا . وهم الملوك ، لا . بل الملوك تحت أقدامهم ، وفى تصاريف أقوالهم وأقلامهم ، وهم الذين إذا التحمت الحرب أرز الإيمان إلى أعلامهم ، وهم القوم كل القوم إذا افتخر كل قبيل بأقوامهم :

بيض الوجوه ، كريمة أحسابهم شم الأنوف ، من الطراز الأول

ولقد نوعوا هذا الفقه فنونا وأنواعا ، وتظاولوا فى استنباطه يدا وباعا .

وكان من أجل أنواعه : معرفة نظائر الفروع وأشباهها ، وضم المفردات إلى أخواتها وأشكالها . ولعمرى ، إن هذا الفن لايدرك بالتمنى ، ولا ينال بسوف ولعل ولوأنى ، ولا يبلغه إلا من كشف عن ساعد الجد وشمر ، واعتزل أهله وشد المئزر ، وخاض البحار وخالط العجاج ، ولازم الترداد إلى الأبواب فى الليل الداج ، يدأب فى التكرار والمطالعة بكرة وأصيلا ، وينصب نفسه للتأليف والتحرير بياتا ومقيلا ؛ ليس له همة إلا معضلة يحلها ، أومستصعبة عزت على القاصرين فيرتقى إليها ويحلها ، يرد عليه ويرد ، وإذا عذله جاهل لايصد . قدضرب مع الأقدمين بسهم ، والغمر يضرب فى حديد بارد ، وحلق على الفضائل واقتنص الشوارد :

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

يقتحم المهامه المهولة الشاقة ، ويفتح الأبواب المرتجة ، إذا قال الغبى لاطاقة ، إن بدت له شاردة ردها إلى جوف الفرا ، أوشردت عنه نادة اقتنصها ولو أنها فى جوف السماء . له تقديمز به بين المباب والمباء ، ونظر يحكم إذا اختلفت الآراء بفصل القضاء ، وفكر لايأتى عليه تمويه الأغبياء ، وفهم ثاقب لوأن المسألة من خلف جبل قاف لخرقه حتى يصل إليها من وراء ؛ على أن ذلك ليس من كسب العبد ، وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء .

هذا : وطالما جمعت من هذا النوع جموعا ، وتتبعت نظائر المسائل أصولا وفروعا حتى أوغيت من ذلك مجموعا جموعا ، وأبديت فيه تأليفا لطيفا ، لامقطوعا فضله ولا ممنوعا . ورتبته على كتب سبعة :

الكتاب الأول : فى شرح القواعد الخمس التى ذكر الأصحاب أن جميع مسائل الفقه ترجع إليها .

الكتاب الثانى : فى قواعد كلية يتخرج عليها مالا ينحصر من الصور الجزئية ، وهى أربعون قاعدة :

الكتاب الثالث : فى القواعد المختلف فيها ، ولا يطلق الترجيح لظهور دليل أحد القولين فى بعضها ومقابله فى بعض ، وهى عشرون قاعدة :

الكتاب الرابع : فى أحكام يكثر دورها ، ويقبح بالفقيه جهلها : كأحكام الناسى والجاهل ، والمكره ، والنائم ، والمجنون ، والمغمى عليه ، والسكران ، والصبى ، والعبد والمبعض ، والأنثى ، والخنثى ، والمتحيرة ، والأعمى ، والكافر ، والجان ، والمحارم ، والولد ، والوطء ، والعقود ، والفسوخ ، والصريح ، والكناية ، والتعريض ، والكتابة والإشارة ، والملك ، والدين ، وثمن المثل ، وأجرة المثل ، ومهر المثل ، والذهب والفضة ،

والمسكن ، والخادم ، وكتب الفقيه وسلاح الجندى ، والرطب ، والعنب ، والشرط ، والتعليق ، والاستثناء ، والدور ، والحصر ، والإشاعة ، والعدالة ، والأداء ، والقضاء ، والإعادة ، والإدراك ، والتحمل ، والتعبدية ، والموالاة ؛ وفروض الكفاية ، وسننها والسفر ، والحرم ، والمساجد ، وغير ذلك : وفى ضمن ذلك قواعد وفوائد ، وتتمات وزوائد ، تبهج الناظر ، وتسر الخاطر .

الكتاب الخامس : فى نظائر الأبواب ، أعنى التى هى من باب واحد ، مرتبة على أبواب الفقه . والمخاطب بهذا الباب والذى يليه المبتدئون .

الكتاب السادس : فيما افترقت فيه الأبواب المتشابهة .

الكتاب السابع : فى نظائر شتى .

واعلم أن كل كتاب من هذه الكتب السبعة لو أفرد بالتصنيف لكان كتابا كاملا ، بل كل ترجمة من تراجمه تصلح أن تكون مؤلفا حافلا .

وقد صدرت كل قاعدة بأصلها من الحديث والأثر ، وحيث كان فى إسناد الحديث ضعف أعملت جهدى فى تتبع الطرق والشواهد لتقويته على وجه مختصر ، وهذا أمر لاترى عينك الآن فقيها يقدر عليه ، ولا يلتفت بوجهه إليه . وأنت إذا تأملت كتابى هذا علمت أنه نخبة عمر ، وزبدة دهر ، حوى من المباحث المهمات ، وأعان عند نزول الملمات ، وأنار مشكلات المسائل المدلهمات ، فانى عمدت فيه إلى مقفلات ففتحتها ، ومعضلات فنقحتها ، ومطولات فلخصتها ، وغرائب قل أن توجد منصوصه فنصصتها :

واعلم أن الحامل لى على إبداء هذا الكتاب أنى كنت كتبت من ذلك أنموذجا لطيفا فى كتاب سميته (شوارد الفوائد : فى الضوابط والقواعد) فرأيته وقع موقعا حسنا من الطلاب ، وابتهج به كثير من أولى الألباب ، وهذا الكتاب هو بالنسبة إلى هذا كقطرة من قطرات بحر ، وشذرة من شذرات نحر .

وكأنى بالناس وقد افترقوا فيه فرقا : فرقة قد انطوى على الحسد جنوبهم ، ورامت إطفاء نوره بأفواههم ، وماهم ببالغيه إلا أن تقطع قلوبهم ؛ وكيف يقاس من نشأ فى حجر العلم منذ كان فى مهده ، ودأب فيه غلاما وشابا وكهلا ، حتى وصل إلى قصده ، بدخيل أقام سنوات فى لهو ولعب ، وقطع أوقاتا يحترف فيها أو يكتسب ، ثم لاحت منه انتفاتة إلى العلم ، فنظر فيه وما احتكم ، وقنع منه بتحلة القسم ، ورضى بأن يقال : عالم وما اتسم ؟

أنا ابن دارة معروفا بها نسبى وهل بدارة يالناس من عار !

على أنا لانتكل على الأحساب والأنساب : ولا نكل عن طلب المعالى بالاكتساب :

لسنا وإن كنا ذوى حسب يوما على الأحساب نتكل

نبني كما كانت أوائلنا تبني ، وتفعل مثل مافعلوا

وأكثر ماعند هذه الفرقة : أن تزدوى بالشباب ، وبالشيخوخة افتخارها ، وتلك شكاة ظاهر عنك عارها ، ولو أنصفت لعرفت أن ذلك من سمات المدح ، لامن وصمات القدح ، وكفى بالرد عليها عند أولى الألباب ماورد مرفوعا وموقوفا « ماأوتى عالم علما إلا وهو شاب » .

وفرقة : غلب عليها الجهل المركب ، وبعد عنها طريق الخير وتنكب ، لاتبرخ حدالا ولاتعى مقالا ، ولا تحسن جوابا ولا سؤالا ، ليس لها دأب إلا أكل الحرام ، والخوض فى أعراض الأنام ، وغمص الناس نهارا ، وبالليل نيام ، فهذه لاتصلح لخطاب ولا تأهل إذا غابت لأن تعاب والسلام .

وفرقة آتاها الله هداها ، وألهمها تقواها ، وزكاها مولاها ، فرأت محاسنه وسناها ، وفوائده التى لاتتناهى ، فاعترفت بشكرها وثناها ، واغترفت من بحرها ولم يلوها عذل عاذل ولا ثناها ، وارتشفت من كؤوس حمياها ، وانتشقت من شذا عرف رياها ؛ وهذه طائفة لاتكاد تراها ، ولا تسمع بخبرها فوق الأرض وثراها ، فحياها الله وبياها وأمطر علينا سحائب فضله وإياها ؛

فصل

اعلم أن فن الأشباه والنظائر فن عظيم ، به يطلع على حقائق الفقه ومداركه ، ومآخذه وأسراره ، ويتمهر فى فهمه واستحضاره ، ويقتدر على الالحاق والتخريج ، ومعرفة أحكام المسائل التى ليست بمسطورة ، والحوادث والوقائع التى لاتنقضى على ممر الزمان ؛ ولهذا قال بعض أصحابنا : الفقه معرفة النظائر ؛

وقد وجدت لذلك أصلا من كلام عمر بن الخطاب ؛

أخبرنا شيخنا الإمام تقى الدين الشمنى ، أخبرنا أبو الحسن بن عبد الكريم ، أخبرنا أبو العباس أحمد بن يوسف (ح) وكتب إلىّ عاليا أبو عبد الله محمد بن مقبل الحلبى ، عن محمد بن على الحراوى قال : أخبرنا الحافظ أبو محمد الدمياطى ، أخبرنا الحافظ أبو الحجاج ابن خليل ، أخبرنا أبو الفتح بن محمد ، أخبرنا إسمعيل بن الفضل أخبرنا أبو طاهر محمد بن أحمد (ح) قال الدمياطى : وأنبأنا عاليا أبو الحسن بن المقير ، أخبرنا المبارك بن أحمد إجازة ، أنبأنا أبو الحسن بن المهتدى بالله قالا : أنبأنا الإمام أبو الحسن الدارقطنى ، حدثنا أبو جعفر محمد ابن سليمان النعمانى ، حدثنا عبد الله عبد الصمد بن أبى خداش ، حدثنا عيسى بن يونس ، حدثنا عبيد الله بن أبى حميد عن أبى المليح الهذلى قال :

كتب عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى

« أما بعد : فان القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة ؛ فافهم إذا أدلى إليك ،

فانه لاينفع تكلم بحق لانفاذ له ، لايمنعك قضاء قضيته ، راجعت فيه نفسك ، وهديت فيه لرشدك ، أن تراجع الحق ، فان الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل ، الفهم الفهم فيما يختلج فى صدرك ، مما لم يبلغك فى الكتاب والسنة ، اعرف الأمثال والأشباه ثم قس الأمور عندك ، فاعمد إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق ، فيما ترى » :

هذه قطعة من كتابه ، وهى صريحة فى الأمر بتتبع النظائر وحفظها ، ليقاس عليها ماليس بمنقول .

وفى قوله : « فاعمد إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق » إشارة إلى أن من النظائر ما تخالفت نظائره فى الحكم لمدرك خاص به ، وهو الفن المسمى بالفروق ، الذى يذكر فيه الفرق بين النظائر المتحدة تصويرا ومعنى ، المختلفة حكما وعلة .

وفى قوله : « فيما ترى » إشارة إلى أن المجتهد إنما يكلف بما ظنه صوابا ، وليس عليه أن يدرك الحق فى نفس الأمر ، ولا أن يصل إلى اليقين ، وإلى أن المجتهد لايقلد غيره .

الكتاب الأول

فى شرح القواعد الخمس التى ذكر الأصحاب أن جميع مسائل الفقه ترجع إليها

حكى القاضى أبو سعيد الهروى : أن بعض أئمة الحنفية ببغداد بلغه أن الإمام أباطاهر الدباس إمام الحنفية بما وراء النهر ، رد جميع مذهب أبى حنيفة إلى سبع عشرة قاعدة ، فسافر إليه . وكان أبو طاهر ضريرا ، وكان يكرر كل ليلة تلك القواعد بمسجده بعد أن يخرج الناس منه ، فالتف الهروى بحصير ، وخرج الناس ، وأغلق أبو طاهر المسجد وسرد من تلك القواعد سبعا ، فحصلت للهروى سعلة ، فأحس به أبو طاهر فضربه وأخرجه من المسجد ، ثم لم يكرر هافيه بعد ذلك ، فرجع الهروى إلى أصحابه ، وتلا عليهم تلك السبع :

قال القاضى أبو سعيد : فلما بلغ القاضى حسينا ذلك رد جميع مذهب الشافعى إلى أربع قواعد :

الأولى : اليقين لايزال بالشك . وأصل ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « إن الشيطان ليأتى أحدكم وهو فى صلاته ، فيقول له : أحدثت فلاينصرف ، حتى يسمع صوتا أو يجد ريحا » ،

والثانية : المشقة تجلب التيسير ، قال تعالى (وماجعل عليكم فى الدين من حرج) وقال صلى الله عليه وسلم « بعثت بالحنيفية السمحة » .

الثالثة : الضرر يزال ، وأصلها قوله صلى الله عليه وسلم « لاضرر ولا ضرار » ،

الرابعة : العادة محكمة ، لقوله صلى الله عليه وسلم « ماراًه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن » انتهى .